الخطاب الغزلي عند ابن زيدون
دراسة أسلوبية

د/ جمال عيسى
كلية الآداب - جامعة طنطا

الخطـــاب الغزلي عند ابن زيدون
دراســـة أسلوبية (*)

من : ابن زيدون (٣٩٤ – ٤٦٣هـ) بأشبيلية .

إلى : ولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي – قبل(٣٩٠ – ٤٨٤هـ) بقرطبة.

ابـــن زيـــدون : فتـــى عربي يرتفع نسبه إلى « بني مخزوم » أحد بطون قريش، ومنهم كان خالد بن الوليد، وهم أصحاب القبة – مجمع السلاح – وأصحاب الأعنة – قـــادة الفرســـان في المعارك . قرأ القرآن، وتعلم النحو، وروى الشعر، ودرس علوم الدين والفلسفة، والتاريخ والجغرافيا .

وصادق في ريعان شبابه « الوليد بن جهور » ولي العهد بعد والده « أبي الحزم» حاكم قرطبة ، وأسهم في أحداث عصره فقام بدور أساسي في القضاء على الخلافة الأمـــوية بقـــرطبة، وفي قيام حكومة ابن جهور معتمداً على سياسته وبيانه، وعلى جاهـــه وسلطانه، فمنحوه الوزارة، واعتمدوا عليه في السفارة بينهم وبين مجاوريهم مـــن ملـــوك الطوائـــف فنفس عليه أعداؤه مكانته السياسية، وحظوته عند «ولادة» (الأميرة الحسناء) .

« ولادة » :

زهـــرة يانعة في الدوحة الأندلسية، وهي ابنة الخليفة المستكفي بالله وكانت نادرة زمانها ظرفاً، وحسناً وأدباً ، أديبة شاعرة، جزلة القول ، مطبوعة على قول الشـــعر، ذات مواهب في الموسيقا والغناء يتهافت العظماء على مجلسها فينعمون بســـحرها ويطـــربون بأحاديـــثها. وكانـــت متحررة تفتح أبواب قصرها لعظماء عصـــرها، وأدبـــاء زمانهـــا، فتهافت على ندوتها الشعراء والوزراء وكبار رجال

(*) دكتـــور / جمـــــال عيسى – كلية الآداب – جامعة طنطا .

السياســة مأخــوذين بجمالها الخلاب ورقة عصرها، وعذوبة أحاديثها ، مع حفاظٌ على الشرف ، وصيانة للكرامة والعرض فكانت كما قالت: (١)

إنــي وإن نظــر الأنــام لمهجتــي كظبـــاء مكــة صيدهن حــرام
يحسبن من لين الكلام فواحشـــا ويصدهن عن الخنــا الإســـــلام

وكانــت ممشــوقة القــوام، يضاء الوجه، صفراء الشعر، طويلة العنق، أحبها ابن زيدون وأحبته، فاشتهر بها، وعرفت به، فراسلها، وراسلته وتظرف كل منهما مع صاحبه مرة، وتطرف أخرى فمدح وهجا وتغزل وتشوق، واشتد ولان، فمن رقتها معه قولها تخاطبه (٢)

ســقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكــل ســكوبٍ هاطل الوَدْقِ مُغْــدِق

ومن عنفها معه قولها: (٣)

إن ابــن زيــدون علــى جهلــه ينتابنــي ظلمــاً ولا ذنــب لــي

ومن تلطفه معها قوله: (٤)

أصــونك مــن لحظــات الظــنون وأعلــيك مــن خطــرت الفكــر
واحــذر مــن لحظــات الــرقيب وقــد يُســتدامُ الهــوى بالحــذر

ومن تعنيفه إياها قوله : (٥)

ولبســنا الجــديد من خلع الحـــ ـب ولم نأل أن خــلعنا اللبــيسا
لــيس مــنك الهــوى ولا أنت منه اهبطي مصر أنت من قوم موسى(٦)

وقد حشد المنافسون له في حبها، والمخاصمون له في اتجاهاته طاقاتهم، فألقوا في نفــس الأمير أبي الحزم بن جهور أن ذهابه إلى ندوة ولادة ذهاب مريب أنه يتآمر معهــا ومــع أقارب بني أميه المخلوعين فاستجاب الأمير إلى هذه الدسائس فقبض علــى ابــن زيدون وألقى به في سجن قرطبة ما يقرب من خمسمائة يوم فر بعدها

إلى إشبيلية هارباً من سجنه، بتدبير من ولي العهد «الوليد بن جهور» .

إشـــبيلية : تقـــع على شاطئ الوادي الكبير بالأندلس[٧]، حاضرة أسبانيا قبل الفتح الإســـلامي، وعـــروس الأنـــدلس عهد ملوك الطوائف ، اشتهرت باللهو والطرب والشراب ، حتى قال فيها ابن رشد : « إذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية » وكانت حالية بالرياض والتماثيل والمنازه والنوافير » .

قـــرطبة: تقـــع على الشاطئ الغربي من نهر الوادي الكبير[٨]، اشتهرت بمسجدها الجامـــع إذ كان موطن عبادة ومجمع سياسة وندوة أدب وثقافة وقد افتن العرب في تشييدها، وعمرانها، تقدر المسافة بينها وبين إشبيلية بثلاث أيام، طواها ابن زيدون في ليلة واحدة عندما فر إليها من سجنه. وكانت الحياة فيها أقرب إلى الجد، وأحفل بـــالعلم والفكـــر قال ابن رشد: «إذا مات عالم بإشبيلية ، فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها»[٩]، وقد حدثنا ابن زيدون عن جمال معاهدها وفتنة ربوعها وقد أرغمته الأحداث على فراقها فقال:[١٠]

أقـــرطبة الغـــراء هل فيك مطمع ؟ وهـــل كـــبد حـــرى لبيـــنك تُنْقَعُ ؟

وهـــل لليالـــيك الحمـــيدة مـــرجع ؟ إذ الحســـن مـــرأى فـــيك واللهـــو

وإذ كنف الدنيا لديك مُوَطَّأُ

نهـــارك وضـــاحٌ ولـــيلك ضـــحيان وتـــربك مصبوح، وغصنك نشوانُ

وأرضـــك تكســـي حين جَوُّك عريان وريـــاك روح للـــنفوس وريحـــان

وحسب الأماني ظلك المنفيا

الغـــزل: أضـــاف الأندلسيون إلى الغزل أبعاداً جديدة، بذورها – ولا شك مشرقية ولكـــن نماءهـــا وذيوعها، و رسوخها وتعميقها، يعود إليها الحياة الأندلسية بما فيها مـــن لهـــو ومـــتاع، وجد وحزم، هم إلى هذه الثقافات التي ورثوها عن المشارقة، والإضـــافات التي أثروا بها هذه الثقافات فنحن نعلم أن العرب منذ العصر الجاهلي اتخـــذوا مـــن المرأة دمية جميلة وقف أمامها الشاعر يتملى جمالها، ويتحسسه بهذه

الصـــورة الحســـية التي تشيع في شعره ونعلم أن هذه النظرة ظلت هي السائدة في العصـــر الإســـلامي والأموي مع مزيد من التطور والنماء الذي يتمثل في قصص عمـــر بن أبي ربيعة الغـــزلـــى وقصص « عبد الرحمن بن إسماعيل» - وضاح اليمن في المدن الكبرى بإقليم الحجاز ، وبرز بجواره غزل البادية وهو ما يسمى بالهـــوى العـــذري ومن شعرائه الذين أذابوا قلوبهم في هوى من يحبون، قيس بن الملوح صاحب ليلى ، وقيس بن ذريح صديق لـــبنى وكثير الذي أحب عزة : ذلك قول وضاح اليمن في حوار يجريه بينه وبين « روضة » حبيبته [١١]

قالـــــت: ألاَ تلجـــــنَّ دارَنَـــــا إن أبانـــــا رجـــــلٌ غائـــــرُ

قلـــت: فإنـــي طالـــب غـــرّةً مـــنه وســـيفي صـــارمٌ باتـــر

قالـــت: فـــإن القصَـــر مـــن دونـــنا قلـــت: فإنـــي فـــوقه ظاهـــر

قالـــت: فـــإن البحـــر مـــن دونـــنا قلـــت: فإنـــي ســـابح ماهـــر

قالـــت: فحولـــى أخـــوة ســـبعة قلـــت: فإنـــي غالـــب قاهـــر

قالـــت: فلـــيث رابـــضٌ بينـــنا قلـــت: فإنـــي أســـدٌ عاقـــر

قالـــت: فـــإن الله مـــن فوقـــنا قلـــت: فربـــى راحـــم غافـــر

ويشيع ذلك الحوار في غزل عمر بن أبي ربيعة كقولة :

قالـــت لتـــرب لهـــا تحـــدثها لنفســـدنَّ الطـــواف فـــي عمَـــر

قومـــي تصـــدَى لـــه ليبصـــرنا ثـــم اغمـــزيه يـــا أخـــت فـــي خفرِ

قالـــت لهـــا : قـــد غمـــزته فأبـــى ثـــم اســـبطرَّت تشـــتد فـــي أثـــرِى

ومن نماذج « كثير الرائعة التي تنم عن ذكاء قلبه وصفاء طبعه » ووفاء حبه: [١٣]

لا تغدرن بوصل عزة بعد ما أخذت عليك مواثقا وعهودا

إن المحب إذا أحب حبيبه صدق الصفاء وأنجز الموعودا

الله يعلم لو أردت زيادة في حب عزة ما وجدت مزيداً

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا

لو يسمعون كما سمعت كلامها خرُّوا لعزة ركعاً وسجودا

حتى إذا ما جاء العصر العباسي، وجدنا النزعة الحسية تصبغ الغزل بل إنها لتتطور بألوانها إلى لهو ومجون،وفي شعر بشار وأبي نواس والحسين بن الضحاك وغيرهم أمثله عديدة . وبجوارها مسار عاطفي نبيل لعديد من شعراء الغزل نعد منهم العباس بن الأحنف الذي لم يحب إلا « فوز » ويراها الناس جميعاً : [١٤]

فما دونها في الناس للقلب مطلب ولا خلفها للناس للقلب مذهب

وأبكي على فوز بعين سخينة وإن زهدت فينا نقول سترغب

وينتقل هذا التراث إلى الأندلس – كما قلنا – فينمو ويزكو الغزل الحسي: ومن شعرائه : ابن هانئ ، وابن حمديس وابن خفاجه وبجواره الغزل العفيف، وعرف به ابن حزم الأندلس، الرجل الذي علم أوربا كيف تحب ، وغزل الصنعة الذي يتناشده الشعراء ليتغنى به في محافل الأندلس ويطول بنا الحديث إن ذهبنا نستعرض النماذج الرائعة، لهذه الأنواع ويهمنا هنا أن نشير إلى لون جديد من بين ألوان الغزل، التي وفدت علينا من أوروبا في تاريخنا المعاصر، وفيه يهتم الشاعر بشخصية الحبيبة ومواهبها العقلية والروحية ونرى أمثلة في غزل العقاد وإبراهيم

ناجي ، وبخاصة قصيدة الأطلال ومنها قوله :- [١٥]

لســـت أنســـاك وقـــد أغريتنـــي بالـــذرى الشـــم فأدمنت الطموح

أنـــت روح فـــي ســـمائى وأنـــا لـــك أعلـــو فكأنـــي محض روح

أيـــن مـــن عينـــي حبـــيب ساحر فـــيه نـــبل وجـــلال وحـــياء

واثـــق الخطـــوة يمشـــي ملكـــاً ظـــالم الحســـن شـــهى الكبرياء

امـــرأة يعتمد عليها الرجل أكثر مما تعتمد عليه، تـــبني معه صروح أماله وتدفعه إلى قمة المجد .

وأنـــا أزعم أن هذا الاتجاه الوافد علينا، نحن الذين أسسنا له، ونحن الذين أبدعناه ثم بعثـــنا به إلى أوربا في القرون الوسطى ومن الأندلس بالذات، وعلى يد أعلام نعد مـــنهم ابـــن زيـــدون وصـــديقته ولادة، فقد كانت مثلا أعلى يتهافت الرجال على الوصـــول إلـــيها، ويتزود المحبون من معينه في الأدب والسياسة قبل أن يفدوا إلى نـــدوتها كما يحدثنا التاريخ والبيت الأخير الذي يوجز صفات محبوبة إبراهيم ناجي يكـــاد يكـــون صياغة جديدة لبيت ارتضته ولادة ، أن يكون وساماً لها فكتبته على عاتق ثوبـــها :

أنـــــا والله أصـــــلح للمعالـــــي وأمشـــي مشـــيتي وأتـــيه تـــيهاً

وفـــي القصيدة : التي نتناولها بالدراسة بالدراسة عديد من ألوان الغزل التي أجملنا الحديث عنها :

فابن زيدون بعد فراره من قرطبة يمسك بقلمه ويصور تجربة فرضها القدر: سجن بجوار الحبيب ، وحرية مع الفراق ويعد المزار ؟ هما أمران أحلاهما مر كما يقول أبـــو نـــواس لقد اختار القرار إلى الحرية ، وها هو ذا في إشبيلية، ولكن أهو حر، أهـــو مســـتقرُ ومطمئن ؟ !!!! علامات استفهام نجيب عليها في هذه الرسالة التي انتظمت عناصر عدة :

١-: عن الفراق : ١ – ٧

٢-: حول الوفاء : ٨ – ٢٠

٣-: رسالة مع البرق والنسيم :٢١-٢٤

٤-: تخيله إيَّاها : ٢٥-٣٥

٥-: عن الأسى بعد النوى : ٣٦-٤٤

وأخيراً : يقول : هكذا أصبحت ، فكيف أنت ؟ ٤٥ – ٥٢ .

النـــص

أَضْـحَى التَّنائـي بَـديلاً مِـنْ تَدانِينَا ... وَنَـابَ عَنْ طيبِ لُقْيَانَا تَجافِينَا[١٦]

أَلا ! وَقَـد حانَ صُبحُ البَينِ ، صبّحَنَا ... حَـينٌ ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا[١٧]

مَـنْ مُـبْلِغُ المُلْبِسِـينا بانتـزَاحهمُ ... حُـزْناً مَـعَ الدّهْرِ لا يَبْلى وَيُبْلِينَا

إنَّ الـزّمانَ الـذي مـازَالَ يُضْـحِكُنا ... أُنْسـاً بقُـربِـهِمُ قَـدْ عـادَ يُبْكِينَا

غِـيظَ العِدا مِنْ تَساقينا الهوَى فدعَوْا ... بِـأَنْ نُغَصّ ، فَقَالَ الدهْرُ آمِينَا[١٨]

فَانحَـلّ مـا كـانَ مَعْقُـوداً بِأَنْفُسِـنا ... وَانْـبَتَّ مـا كـانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا

وقَـدَ نَكـونُ وَمـا يخشَـى تَفَرُّقُنا ، ... فالـيَوْمَ نَحْـنُ وَمـا يُرْجَى تَلاقِينَا

يا ليتَ شِعـرِي وَلَم نُـعتِبْ أَعـادِيَكُمْ ... هَلْ نالَ حظّاً مِنَ العُتبَى أعادِينَـا؟[١٩]

لـمْ نَعـتَقِدْ بَعـدَكمْ إلاَّ الـوَفاءَ لكـمْ ... رَأْيـاً ، ولَـمْ نَـتَقَلَّدْ غَيْـرَهُ دِينَا

مـا حَقَّـنا أن تُقِـرّوا عَينَ ذِي حَسَدٍ ... بِـنا،وَلا أَنْ تَسُرّوا كاشِحاً فِينَا[٢٠]

كُـنَّا نَـرى اليأسَ تُسلِينا عَوَارِضُهُ ، ... وَقَـدْ يَئِسْـنَا فَمَـا للـيَأسِ يُغْرِينَا

بِنْـتُمْ وَبِـنَّا ، فَمـا ابـتلَّتْ جَوَانِحُنا ... شَـوْقاً إلَيْكُمْ ، وَلا جَفَّتْ مآقِينَا[٢١]

نَكَـادُ ، حِـينَ تُناجِـيكُمْ ضَـمائِرُنا ، ... يَقْضِي عَلَيْنَا الأَسَى لَوْلا تَأَسّينَا[٢٢]

حَالَـــتْ لِفَقْـــدِكُمُ أيّامُـــنا ، فَغَـــدَت ... سُوداً، وكانَتْ بكُمْ بِيضاً لَيالِينا[٢٣]

إذْ جانِـــبُ العَـــيشِ طَلْـــقٌ مِـــن تأُلُّفِنَا ... وَمَـــرْبَعُ اللَّهْـــوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

وَإذْ هَصَـــرْنَا فُـــنُونَ الوَصْـــلِ دانِـــيَةً ... قِطـــوفُها ، فَجَنَيْنَا مِنهُ ماشِينَا[٢٤]

لُيســـقَ عَهـــدُكُمُ عَهْـــدُ السّـــرُورِ فَما ... كُنْـــتُمْ لأَرْوَاحِـــنَا إلا المُحَبِّيـــنَا !

لا تحســـبوا نـــأيكم عـــنا يغيـــرنا ... إن طالمـــا غيـــر الـــنأي المحبيـــنا

وَاللهِ مَـــا طَلَـــبَتْ أَهْـــوَاؤنَا بَـــدَلاً ... مِـــنكُمْ ، وَلا انصـــرَفَتْ عَنكمْ أَمانينا

ولا اســـتفدنا خلـــيلا عـــنك يشـــغلنا ... ولااتخـــذنا بـــديلا مـــنك يســـلينا

* * * * *

يا سارِيَ البَرْقِ غادِ القَصْرَ وَاسقِ ... مَن كانَ صِرْفَ الهَوى وَالوُدّ يَسقِينَا[٢٥]

وأســـأَلْ هُـــنالِكَ : هَلْ عَنِّي تَذَكُّـــرُنا ... إلفـــاً ، تَذَكُّـــرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا ؟ [٢٦]

وَيَـــا نَسِـــيمَ الصَّـــبَا بَلِّـــغ تحيَّتَنَا ... مَـــنْ لَـــوْ على البُعدِ حَيّاً كان يُحيِينَا

فَهَـــلْ أَرَى الدّهرَ يَقضِينا مُسا عَفَةً ... مِنْهُ ، وَإِنْ لمْ يكُنْ غِبًّا تَقاضِينا [٢٧]

رَبِـــيبُ مُلْـــكٍ ،كَـــأَنَّ اللهَ أَنْشَـــأَه ... مِســـكاً ، وَقَـــدَّرَ إنشاءَ الوَرَى طِينَا

أَوْ صَـــاغَةُ وَرِقـــاً مَحْضاً ، وَتَوَّجَه ... مِنْ نَاصِعِ التِبْرِ إبْداعاً وَتَحسِيناً [٢٨]

إذا تَـــأَوَّدَ آدَتْـــهُ رَفَاهِـــيَةً ، ... تُـــومُ العُقُودِ ، وَأَدْمَتهُ البُرَى لِينَا[٢٩]

كانَـــتْ لَهُ الشَّمسُ ظِئْراً في أَكِلَّتِه ، ... بَـــلْ مَـــا تَجَلَّـــي لهَا إلاَّ أَحَايِينَا[٣٠]

كأَنَّمـــا أُثبِـــتَتْ ، في صَحنِ وَجْنَتِه ... زُهْـــرُ الكَـــوَاكِبِ تَعويذاً وتَزْيِينَا[٣١]

مـــا ضَـــرَّ أَنْ لمْ نَكُنْ أَكفاءَهُ شرَفاً ... وَفَـــي المَـــوَدّةِ كَـــافٍ مِنْ تَكَافِينَا ؟

يـــا رَوْضَـــةً طالمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا ... وَرْداً جَلاَه الصِّبا غضًّا وَنَسْرِينا[٣٢]

ويَـــا حَـــيَاةً تَمَلَّيْـــنَا بِزَهْـــرَتِهَا ... مُنًـــىً ضِـــرُوباً ، وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَا[٣٣]

وَيــا نَعـيماً خَطَـرْنَا مِنْ غَضَارَتِه ... في وَشْيِ نُعمَى ، سَحَبنا ذَيلَه حِينَا [٣٤]

لَسْـنـا نُسَـمّيكِ إجْـلالاً وَتَكْـرِمَـةً ... وَقـدْرُك المعتْـلى عَنْ ذاك يُغْنِينَـا

إذا انفَـرَدتِ وما شُورِكتِ في صِفَةٍ ... فَحَسْـبُنَا الوَصْـفُ إيضَاحاً وَتَبْيِينَا

يـا جـنَّةَ الخُلْـدِ أُبْدِلْـنا بِسِدْرَتِها ... وَالكَوْثَرِ العَذْبِ زَقُوماً وَغِسلِينَا [٣٥]

كأَنَّـنَا لَـمْ نَبِتْ ، وَالوَصْلُ ثالِثُنَا ، ... وَالسّعْدُ قَدْ غَضّ من أجفانِ ،واشينا

إنْ كانَ قَدْ عَزّ في الدّنْيَا اللقاءُ بكم ... ففـي مَـوْقِـفِ الحَـشْـرِ نَلقاكُمْ

سِـرّانِ فـي خاطِرِ الظَّلماءِ يَكْتُمُنا ... حتـى يَكـادَ لِسـانُ الصُّبْحِ يُفشينَا

لا غَـرْوَ في أنْ ذكرْنا الحزْنَ حينَ ... عَـنـهُ النُّهَى، وتَرَكْنا الصّبرَ ناسينا [٣٦]

إنَّا قَرَأْنا الأَسَى، يَوْمَ النَّوَى، سُوَراً ... مَكـتوبَةً ، وَأَخَـذْنا الصّـبرَ تَلقينا

أَمّـا هَـوَاكِ ، فلَـمْ نَعدِل بمَنْهَلِه ... شُـرْباً وَإنْ كَانَ يُرْوِينا فيُظْمِينا [٣٧]

لَـمْ نَجْـفُ أُفْقَ جَمالٍ أَنتِ كَوْكبُهُ ... سـالِينَ عَـنهُ ، وَلَـمْ نَهجُرْهُ قالِينا

وَلا اخْتِـياراً تَجَنَّبْـناهُ عَـنْ كَثَبٍ، ... لكـنْ عَدَتْنا، على كُرْهٍ، عَوَادِينا [٣٨]

نأسَـى عَلَـيكِ إذا حُثَّتْ مُشَعشَعَةً ... فِيـنا الشَّـمُولُ وَغَـنَّانَا مُغَنِّينا[٣٩]

لا أَكْـؤُسُ الرّاحِ تُبْدي من شمائلِنا ... سِـيما ارْتِـياحٍ وَلا الأَوْتَـارُ تُلْهِينا

دُومي على العَهدِ، مادُمنا، مُحافِظةً ... فالحـرُّ مَـنْ دانَ إنْصَـافاً كمَا دِينا

فَمـا استَعَضْـنا خَليلاً منكِ يَحبِسُنا ... وَلا اسـتَفَدْنا حَبِيـباً عَـنْكِ يَثْنِيـنا

وَلَـوْ صَـبَا نَحْوَنا من عُلْوِ مَطلَعِه ... بَـدرُ الدّجَى لم يكنْ حاشاكِ يُصْبِينا

ابـدى وَفاءَ وَإنْ لمْ تَبْذُلي صِلَةً ، ... فَالطَّـيفُ يُقْنِعُـنا ، وَالذِّكـرُ يَكفِينا

وَفي الجَوَابِ مَتَاعُ ، إنْ شَفَعتِ به ... بِـيضَ الأَيـادي التي مازِلْتِ تُولِينا

عَلَـيكِ مِـنَّا سَـلامُ اللهِ مـا بَقِيَتْ ... صَـبَابَةٌ بِـكِ نُخْفِـيها، فَتُخْفِيـنا

قـــال ابـــن بسام : وهـــذه القصيدة بجملتها فريدة وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه(٤٠).

البناء الموضوعي

١-: الفراق ١ : ٧

حرمان من المجد، ومن جوار من يحب، فما باله لا يرثى لمجده، المهدد بل يئن لحبه النائى، إنه لا يفرح بانطلاقه بعد أغلال يقدر ما يأسى لبعد بعد قرب – ولا يطمئن إلى حرية وأمان ، بقدر ما يأسف لتجافٍ بعد لقاء .

أَضْـحَى التَّنائـــي بَديلاً مِنْ تَدانِينَا وَنَـــابَ عَـــنْ طِـــيبِ لُقْيَانَا تَجافِينَا

ذلـــك لأن دنـــياه هـــي الحب، وحياته هي القرب، فإن بعدت عنه، فذلك أمر دونه المـــوت، بـــل إن المـــوت أمنيته؟ لعلة يريحه من مكابدة الفراق ومعاناة البعاد، إنه حـــزين يقضـــي عليه الفراق، وأسوان يتنكر له الزمان فقد أضحكه ثم عاد فأبكاه، ومـــتعه بحـــبه أياماً فروى غلته بعذب الهوى وأغاظ حساده بصفاء الحب، ثم تنكر فاســـتجاب لأعاديـــه ، فهـــا هو ذا كما يريدون له ولحبه، يعاني غصة لا يسغيها، وتســـقط نفســـه حســـرى على ما ضاع من حبه، وتخلو يد آسفه على ما فقدت من وصلها ولا أمل في لقاء، ولا سبيل إلى وصال.

فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا !!

٢ : حول الوفاء ٨ – ٢٠

وبعـــد الفـــراق لـــم يـــبق إلا الوفاء بلسماً للجراح أما هو فيردد : « أنا على عهد الوفاء.. فلن أرضى لك عدواً ، فهل أنت كذلك وفيه بالعهد، باقية على الحب؟

يـــا لـــيت شـــعري ولم نعتب أعاديكم هـــل نال حظاً من العتبى أعاد بنا ؟

إن وفائي لكم دين، وحبي لكم عقيدة، ومن أجل ذلك

مـــا حقـــنا أن تقروا عين ذي حسد بـــنا ولا أن تســـروا كاشـــحاً فيـــنا

وما دمت ثابتاً على الوفاء فلا تشمتي لي كاشحاً ، ولا ترضى لي عدواً وإليك دليل وفائـــي ، لعلِّى أطمئن إلى وفائك. كنت أظن أن اليأس من اللقاء ينسيني إياكِ ، فإذا بـــه يغريني بك وتخيلت أن بُعدي عنك يطفئ نار الشوق إليك ، فإذا به يؤجج نار الشـــوق إلـــيك ويفطـــر القلب ويسكب الدمع . قلبي معك، ضميري يناجيكِ، فما بعدت عنك إلا بالجسد، وما أهونه، وعندما يناجيك الفؤاد تعصف بي الأحزان ، وتكـــاد تقضـــي علي لولا تعلقي بالآمال فقد بدُلت حياة غير الحياة ، فقد كنت معك أقضـــي حـــياة سعيدة تضئ سعادتها الليل وتبدد الظلام، وها أنا أعيش حياة تطمس ببؤســـها بياض النهار وتحيله إلى سواد. فالوصال هو الحياة، والحياة هي الوصال ... بـــه تشـــرق الدنيا ، ويهنأ العيش ويصفو الهوى ، فتبلغ الأمل ، ونقطف الجنى ثماراً شهيه، وتلك هي حياتنا التي نعمنا بها ردحاً من الزمان :

إذ جانـــب العـــيش طلـــق من تآلفنا ومـــربع اللهـــو صاف من تصافينا

وإذ هصـــرنا فـــنون الوصـــل دانية قطـــوفها فجنيـــنا مـــنه ماشـــيناَ

حـــيا الله ذلـــك العهـــد، فمـــا أحـــلاه فقـــد كـــان راحـــة للـــنفس وريحانا للروح وســـوف أعـــيش على ذكراه وسأظل حيث كنت لن أتحول فأنسى، أو أتغير فأسلو، فمـــا أنـــا بالمحـــب الـــذي ينســـى ومـــا أنـــت بالحبـــيب الـــذي ينســـى، فما تحول عنك الهوى، ولا انصرفت إلى غيرك أمنية :

والله مـــا طلـــبت أهـــواونا بـــدلاً مـــنكم ولا انصـــرفت عنكم أمانينا

ولا اســـتفدنا خلـــيلا عـــنك يشغلنا ولا اتخـــذنا بـــديلا مـــنك يسلينا

٣ : رسالة مع البرق والنسيم :

وكأني بشاعرنا ولم يطق معاناة التجربة وحدة ، فالتجأ إلى الطبيعة يستغيث البرق والنســـيم علهمـــا يحمـــلان عنه بعض مآسيه، ويضعان لعواطفه ما عجزت دونه طاقاته، أيستطيع ابن زيدون أن يغدو إلى قصر ولادة فيستاقيا الود، ويتبادلا الحب؟

أنـــه لـــن يستطيع، فليلجأ إلى ساري البرق عساه يحمل مشاعره بإشبيلية إليها في قرطبة ، وليحمله شكاته قائلاً :

وأســـأل هـــنالك هـــل عنَّى تذكرنا إلفًـــا، تذكـــره أمـــس يعنيـــنا؟

أيستطيع ابن زيدون أن يكون أمامها يباكرها بالحب ، ويغاديها بالتحية ؟ أنه لن يســتطيع ، فليــبث نسيم الصبا شكواه وليحمله تحاياه، لعل البرق الساري يعود بما يــؤكــد وفــاءها ، ولعــل نسيم الصبا يرجع بتحية من عندها تقيم أوده ، وتحفظ حياته ، ولكن أيسمح الزمان ؟ لقد طالما أشقي الزمان المحبين .

فهــل أرى الدهــر يقضينا مساعفة فهــل أرى الدهــر يقضــينا مساعفة

وهيهـــات أن يســـتجيب له الزمـــان .

٤ : تخيله إيَّاها : ٢٥ – ٣٥

للحـــب والمحبين دنيا وحياة ، فدنياهم مدن فاضلة ، وحياتهم خيال جامح، وجمال رائـــع، وتصور بديع، إن صور الواقع مرة، أضفي عليه من إبداعه مرات، فكيف كانت ولادة في دنيا ابن زيدون؟

ربـــيب ملـــك كـــأن الله أنشـــأه مســـكاً، وقـــدر إنشـــاء الـــورى طينا

ثـــم يقتـــرب مـــنها جـــداً ، ويحاول أن يجيل نظرة تفصيلية في أعضائها: وجهها وشعرها، وجنتها وقوامها وساقاها ، فكيف رآها، وبم فسر جمالها؟

أمـــا وجهها ففضة خالصة، وأما شعرها فتبر ناصع، وأما قوامها الأ ملود فقد أثقله ازدواج العقـــود فتثنـــي وتـــأود، إنه مترف لين فيه الخلاخيل وهو في كلته يضئ ويشـــرق كالشمس في كبد سمائها « بل ما تجلى لها إلا أحايينا » وما الذي يقتضيه أن يتعـــرض لحرها اللافح، وله من تراثه وترفه مظلة واقية، ومراح وادع؟ وماذا يتـــراءى في طلعتها ويطالعنا في وجنتها؟ إنها زهر الكواكب وما حاجتها للكواكب الزهر ولها من إشراق وجهها خير ضياء.

وهـنا يشـفق علـى جمالها من شر الحسود، فيأبى إلا أن يعوذها ، ويحصنها من عينه، وذلك بقوله :

كأنمـا اثبـتت فـي صـحن وجنته زهـر الكـواكب تعـويذاً وتزيينا

حبيب ذو شرف وجمال ، فأين أنا من هذا الشرف وذلك الجمال؟

وهنا تأتي المودة فتلغي الفوارق ، ويأتي الحب فيجمع بين الحبيبين :

مـا ضـر أن لـم نكن أكفاءه شرفاً وفـي المـودة كـاف من تكافينا

تلـك نظـرة تعـتمد على الواقع ثم ترتقي به، وتحس موطن الجمال ثم تحلق بها، وتدلف على إلى مرأى الإبداع ثم تسمو به .

ثم يهيب الشاعر خياله وجنانه ، بل حياته ووجوده، لولادة «فكيف رآها» ؟

رآهـا روضة ووروداً، وحياة ومني، ونعيماً ونضارة، فمثل في محرابها ينادي من الأعماق بقوله:

يـا روضـة ، يـا حيـاة ، يا نعيمـا

لسـنا نسـميك إجـلالا وتكـرمـة وقـدرك المعتـلى عن ذاك يغنينـا

وكـيف يسـميها ؟ وبمـاذا يسـميها ، ولهـا فـي صـفاتها المتفـردة بهـا الاسـم والكنـية واللقـب، فليتـركها مصـونة بالجمـال ، محجـبة بالـوقار . أيـتها المحـبوبة التـي تأخـذ بـيد الحبـيب ليرقـى إليها : رآها أطيب ما في الطبيعة ، فهي الورد والنسرين مرت عليهما الصبا، فجلتهما وتركتهما في غضارة يفـوحان بالطيب. رآها نعيماً أخذ يختال فيه ، ويزهو به، واعتز بالنعيم، ولم يفتن بالزهر بل احتفظ لهذا وذاك ، بالتكريم والإجلال ، واحتفظ لصديقته بالقدر الكبير .

٥: الأسى بعد النوى: ٣٦ – ٤٤

وارتقى ابن زيدون بولاده من روضة وحياة إلى أن صارت عنده جنة الخلد

يـا جـنة الخلـد أبدلـنا بسـدرتها والكوثـر العـذب زقـوماً وغسلينا

ومن هذا الوجود الرائع كان الضياع والفقد، الذي لم ينتصب فيه حاضره ومستقبله فحسب ، ولكنه استدار إلى ماضيه يحيله إلى ضياع أيضاً، فييأس شاعرنا بين هذا وذاك وتتساقط نفسه حسرات وحسرات، فلم تستلب جنته فقط، بل تجرع بعدها الزقوم والغسلين .

فيحاور الشاعر: دنياه قد عز فيها اللقاء فليت القيامة تقوم لعله أن – يلقاها مجرد لقاء يوم الحشر، وهذا يكفي .

إن الماضي قد ذهب بخير ما فيه من وصل يؤنسهما، وسعد يحجب الوشاه عنهما، حتى استحالا إلى سر خفي ، وحلم لذيذ امتد حتى الصباح

إن كان قد عز في الدنيا اللقاء ففي موقف الحشر نلقاكم ويكفينا

فما كان يتصور أن سحابة حزن ستمر في سمائهما ، وما كانا يظنان أن شائبة ألم تعكر صفوهما، فقد تحولت حياتهما إلى سعادة خالصة نسياً فيها كل شيء حتى الصبر . ثم فتح الفراق صفحة جديدة قرآنا فيها الأسى وكابدنا منها الصبر ، عصفت بلذتي، وقضت على هناءتي:

إنَّا قَرَأْنَا الأَسَى، يَوْمَ النَّوَى، سُوَراً مَكتوبَةً ، وَأَخَذْنا الصّبرَ تَلقِينا

فهل فكر في أن يحل محلها أخرى تستقطب حبه، أو تخفف عليه ؟

كلا إنه سيظل على عهد الوفاء، فلن يتحول عن منهلها ، ولن يصدر إلاعنه، وسيظل مكابداً حرقةَ العطش، وسيظل شربها مورده الوحيد فما جفا ، ولا سهد، ولا هجر، ولا كره .

وكيف يجفو وهي من الجمال كوكبه، ومن الحسن رونقه ؟ وهو كما قال :

لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمالٍ أَنتِ كَوْكبُهُ سالِينَ عَنهُ ، وَلَمْ نَهجُرْهُ قالِينا

وَلا اختِياراً تجَنَّبْناهُ عَنْ كَثَبٍ، لكنْ عَدَتْنا ، على كُرْهٍ ، عَوَادِينا (٣٨)

٦- هكذا أصبحت فكيف أنت؟ ٤٥ إلى آخرا النص :

وهـنا يكـشف ابن زيدون مشاعره، ويبلور أفكاره التي شاعت في قصيدته وكأنه عرف أن الكلمات الأخيرة هي التي تبقى ، فرأى أن يبث قلبها عواطفه كلها، ويلقى في روعها معانيه جميعها فقال :-

نأسى عليك إذا حثـت مشعشعـةً فينـا الشمول وغنانا مغنيـنـا

لا أكؤوس الراح تبدي من شمائلنا سـيما ارتـياح ولا الأوتار تلهينا

أنـه يعيش لها، باق على الود، لا ينسى وإن شرب، ولا يتحول عنها وإن طرب، فلا خمر تنسيه، ولا غناء يلهيه .

ذلـك منـى بـمنـزل العهـد لا أتحول عنه، فكوني كذلك، وفيَّة منصفة، شأن الأحرار شيمتهم الوفاء، فلا خليل إلا أنت ولا أمل إلا فيك .

ولـو صـبا نحونا من علو مطلعه بدر الدجى لم يكن حاشاك يصيبنا

فأنـت بـدر البدور ، وأنت حب القلوب، فحاشا أن يفتنني بدر سواك، أو يشغلني حبيب غيرك .

فإظهـري وفـاءك لي، واكشفي عن مشاعركِ نحوي، وحسبي منك ، ما يدل على المـودة – أي مودة – فإني قانع بالقليل، بالطيف، بالذكر، وحبذا لو تفضلت فرددت علـى رسالتي هذه، فتضنمى إلى أياديك البيضاء يداً أخرى لا أنساها ، وأنت أهل للفضل دائماً . سلام عليك ما دام الحب، وما دام الوفاء .

علـيك مـنا سـلام الله مـا بقيت صـبابة بـك نخفـيها فتخفيـنا

وتـتذبذب القصـيدة بين الغزل الحسي المتطرف ، والهوى العذري العفيف ويمثل الأول قوله :

ربـيب ملـك كـأن الله أنشـأه مسـكاً وقـدر إنشـاء الورى طينا

إلى قوله :

كأنمـا أثبـتت فـي صحن وجنته زهـر الكـواكب تعـويذاً وتـزيينا

أمـــا النظرة العفيفة فتشيع في القصيدة وتسيطر عليها ومن روائعه في هذا المجال الأبيات التالية :-

لـــمْ نَعـــتَقِدْ بَعـــدَكمْ إلاَّ الوَفاءَ لكمْ رَأْيـــاً ، ولَـــمْ نَـــتَقَلَّدْ غَيْـــرَهُ دِيـــنَا

لا تحســـبوا نـــأيكم عـــنا يغيـــرنا إن طالمـــا غيـــر الـــنأي المحبيـــنا

لا غَرْوَ في أنْ ذكَرْنا الحزْنَ حينَ نهتْ عَنهُ النُّهَى ، وتَرَكْنا الصَبرَ ناسِينا [٣٦]

ولَـــوْ صَـــبَا نَحْوَنا من عُلْوِ مَطلَعِه بَـــدرُ الدّجَى لم يكنْ حاشاكِ يُصْبِينا

ولـــم تخـــل القصـــيـــدة مـــن غزل الطموح الذي شاع في العصر الحديث ، ويصوره قوله:-

مـــا ضَـــرَّ أنْ لمْ نَكُنْ أكفاءَهُ شرَفاً وَفـــي المَـــوَدّةِ كَـــافٍ مِنْ تَكَافِينَا ؟

لنا نسمـــيك إجـــلالاً وتكـــرمـــــة وقدرك المعتـــلى عن ذاك يغنينـــــا

إذا انفَـــرَدتِ وما شُوركتِ في صِفَةٍ فَحَسْـــبُنَا الوَصْـــفُ إيضَاحاً وتَبْيِينَا

أبـــيات نعـــدها بمثابة التمهيد لهذا اللون من الغزل ، وإن لم تصور سماته الأصيلة التي تحدثت عنها قبل تحليل القصيدة . ومعنى ذلك أن الشاعر قد تمثل ألوان الغزل التي سبقته ، وأسس لاتجاه جديد تلقته أوربا عن الأندلسيين منذ العصور الوسطى .

إن فـــن الغزل يستغرق وحده ما يقرب من ثلث ديوان ابن زيدون وهي نسبة عالية لا نكاد نجد لها مثيلاً عند غيره من الشعراء اللهم إلا من انقطعوا للغزل وحده مثل عمـــر بـــن أبـــي ربيعة وجميل بن معمر والعباس بن الأحنف فإن الغزل استغرق شعرهم جميعاً[٤١].

وفـــي هذا الغزل يستهدف الشاعر التنفيس عن نفسه، وهو لون من التعويض يتيح لصـــاحبه أن يطلـــق لانفعالاتـــه المكـــبوتة العنان في صور فنية تتيح له التحرر والانطـــلاق، كما يستهدف أن يسترضي محبوبته ويستديم وفاءها له بالتزلف إليها، وإرضـــاء غرورها بالثناء عليها والإشادة بأصلها، والتنويه بصفات الجمال الحسي

والمعنوي وقد رفعها إلى درجة من الجلال انفردت بها عن خلق الله جميعاً.

ربـــيب ملـــك كـــأن الله أنشـــأه مســـكاً وقـــدر إنشـــاء الورى طيناً

ومن طبيعة المرأة أن تنشد في حبها ما يرضى حاجتها الوجدانية من لذة وسرور ورغباتها العاطفية من حب وتقدير .

ويستهدف الشاعر من جهة ثالثة أن يستقطب حبها له، ويقصى عنه حب المنافسين، فـــيعالج فـــيما أصابه من بث لبعدها ومن ذبول لفراقها وهو بذلك يريد أن تفتح له قلبها، وأن تغلقه دون المزاحمين له .

مَـــنْ مُـــبْلِغُ المُلْبِســـينا بانتزَاحهمُ حُـــزْناً مَـــعَ الدّهْرِ لا يَبْلى وَيُبْلِينَا

يا ليتَ شعرِي ولَم نُعتِبْ أعاديكـــمْ هَلْ نالَ حظّاً مِنَ العُتبَى أعادينـــا؟

دُومي على العَهدِ، مادُمنا، مُحافِظةً فالحـــرُّ مَـــنْ دانَ إنْصَافاً كمَا دِينا

* * * * * *

يفســـر بعـــض علماء النفس ما يصدر عن الإنسان من نشاط أو تصرف بالغريزة الجنسية وعلى رأسهم (فرويد) ويقول آخرون أن حب السيطرة هو أساس تصرفات الإنسان وعلى رأس هؤلاء (أدلر) ويفسر هؤلاء عاطفة الحب على حســـب رأيـــه فيقول فريق إن الجنس وراء الحب، ويقول فريق لا بلى حب السيطرة . والواقع أن عاطفـــة الحـــب مـــركبة و معقـــدة تكاد تتصل بجميع الغرائز من الحقد والجنس والاحترام والعطف[٤٢]. والإدراك والفكر[٤٣].

والحب يزداد قوة وعنفاً إذا حالت بين المحبين الحوائل وهنا تنضم إلى هذه الغرائز غريزة الكفاح فتزيد العاطفة اشتعالاً ، وحيثما وجدت القيود ، وضيقت على المحب وجد الحب الحقيقي لأنه قائم على الحرمان، وقديماً قال الشاعر:-

وزادنـــي كلفـــاً في الحب أن منعت أحـــب شـــيء إلى الإنسان مامنعا

علـــى أن البعد يذكى الخيال ، ويجسم المزايا ويحيط المحبوب بهالات من الجمال

والكمال قد لا يكون له منها نصيب . وبهذا كله نفسر عاطفة الحب عند ابن زيدون في خطابه ففيها الجنس :

إذا تـــأود آدتـــه رفاهـــية تـــؤم العقـــود وادمـــته البرى لينا

وفيها حب السيطرة عليها :

مـــا حقنا أن تقروا عين ذي حسد بـــنا ولا أن تســـروا كاشـــحاً فينا

وفيها آثار الحنو الجنسي والاحترام والعطف، والإدراك والفكر:

نكاد حين تناجيكم ضمـــائرنـــــا يقضى علينا الأســـــى لولا تأسينـــا

حالت لفقدكم أيامنا، فغـــــــدت سودا وكانت بكم بيضـــا ليـــاليـنـــا

إذ جانب العيش طلق من تألفنـــا ومربع اللهو صافٍ مـــن تصـــافينـــا

وإذ هصرنا فنون الوصـــــل دانية قطـــوفهـــا فجنينـــا منـــــه ماشينـــا

وعمـــق هـــذه المشـــاعر جمـــيعها تلك الفرية التي حالت بينهما؟ وحرمت كلاً من صـــاحبه فأخـــذ شاعرنا يبالغ في تصور محبوبته، ويصوغها آية من آيات الجمال الحسي والنفسي .

إن بعـــد الإنســـان عن بلده أو مسقط رأسه مما يحرك صادق الوجدان شوقه إليها، وتلهفـــا عليه، فإذا كان في بلده حبيب لم يصحبه إلى غربته، ولم يخفف من حرقة بعـــاده تأججـــت مشاعر الشوق والحنين وانفعالات الحب والهيام، فأبدعت من الفن روائع صادقة تهز القلوب وتخلب الألباب .. من أمثال هذه النونية الرائعة لبحتري الأندلس(٤٤).

تحليل الخطاب

القصـــيدة ذات موســـيقا شجية ، وقد أفرغها في موسيقى بحر البسيط ذي النغم الممتد الذي يتسع للتعبير عن المشاعر القوية، والمعاني الجادة تصاحبه هذه الموســـيقا الخفـــية التي تتمثل في الصدق العاطفي الذي يختار الشاعر ما يعبر عنه مـــن الألفـــاظ والصور والتعبيرات، ويقع الشاعر تحت سيطرته فإذا به يكاد يعبر لاشـــعورياً عن مقتضيات وجدانه بالوسائل الفنية المناسبة، وحسبنا هذه الفنون التي اعـــتمدت عليها القافية وكأنها تحكي صوت الأنين للمتألمين، وهو أنين ممتد يصور العمـــق الصـــادق، فبعد كل نون ألف مدوده ينطلق بها الصوت، وقبلها ياء مسبوقة بكســـرة وقد تكون هذه الكسرة على نون أخرى ، تمثل بدء أنته، فضلاً عن تكرار صـــوت النون في كل بيت، وكثرته الكاثرة التي تصل إلى سبع مرات ويتم ذلك لا شعورياً فيدل على الصدق الفني، والطبع الشعري الأصيل.

وتســـربل نغمـــة الحزن القصيدة من أولها حتى أخرها فيشيع معجم البكاء والفراق والدمع والأسى .. الخ ، مما تعكس مدى حزنه العميق وصوته الذبيح الذي يكاد لا يسمع في قوله:

أَضْـحَى التَّنائـــي بَـــديلاً مِنْ تَدانِينَا وَنَـــابَ عَـــنْ طِـــيبِ لُقْيَانَا تَجافِينَا

وتشـــيع فـــي القصـــيدة الأفعال يبكينا، يأسنا، لا جفت مآقِيَنا ، ما ابتلت جوانحنا ، تقضـــي علينا الأسى ... الخ هذه التعبيرات الحزينة التي تتفق والآهات التي يزفر بها في آخر كل بيت و فيها يختلط الألم بالأمل ، واليأس بالرجاء. وكيما يشمخ ابن زيـــدون هذه الموسيقى الحزينة وتلك العاطفة الجياشة، فقد راح يحملنا على أجنحة خـــياله عبر موسيقاه الحزينة التي أدرك أنها تتفق وطبيعة فنه، فقد جعل منطلقه في التعبيـــر عن حزنه منطلقاً موسيقياً، يظهر ذلك من خلال هذا الوشى وتلك النمنمة علـــى النغم الأصيل للوزن فتراه يورد الجزء الأخير في بعض الأبيات على لفقين

متساويين في البناء والإعراب مثال:

- إبداعاً وتحسيناً .
- تعويذا وتزينيا .
- غضاً وتسريناً.
- إيضاحاً وتبييناً.
- زقوماً وغسلينا.

وهذا النمط من الوشى الموسيقي للبيت يعرف عند البلاغيين بالتطريز تارة والتسهيم تارة أخرى، وهو جعل آخر البيت على جزئين متساويين . (٤٥)

كما يبدو عنده حسن التقسيم في الجزء الأخير من البيت أيضاً في قوله:

فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا

ولا يخفى علينا ما للبديع من جرس موسيقي يتمثل في الجناس والطباق والتصريع في البيت الأول :

أَضْحَى التَّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِينَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجافِينَا

والتمهيد للقافية من جنس رويها، فيمهد للقافية بعدة نونات على النحو الذي سبق أن أشرت إليه . ومن أمثلة الطباق قوله :

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أَيّامُنا ، فَغَدَت سُوداً ، وكانَتْ بكُمْ بِيضاً لَيالِينَا لياليناَ(٢٣)

فالأيام تقابل الليالي ، وغدت ، تقابل كانت ، والسود تقابل البيض في البيت ، وفيه أيضاً التعبير باللون الأسود رمزاً للفقد والهجر والقطيعة . وقوله

يا جَنَّةَ الخُلْدِ أُبْدِلْنا بِسِدْرَتِها وَالكَوْثَرِ العَذْبِ زَقُوماً وَغِسْلِينَا

وكذا قوله :

وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً مِنكُمْ ، وَلا انصَرَفَتْ عَنكُمْ أَمانينا

وهو جناس تام ومثاله أيضاً :

لُيسـقَ عَهـدُكُمُ عَهْدُ السّرُورِ فَما كُنْـــتُمْ لأَرْوَاحِـــنَا إلا المُحِبّيـــنَا!

ومنه أيضاً :

عليك منا سـلام الله مـــا بقيـت صبابـة بـك نخفيهـــا ، فتخفينا

ومن الجناس ما يكون ناقصاً كقوله :

إذا تَـــأوّدَ آدَتْـــهُ رَفَاهِـــيَةٌ ، تُـومُ العُقُـودِ ، وَأَدْمَتهُ البُرَى لِينَا

وَيَـا نَسِـيمَ الصَّـبَا بَلِّـغ تحيّتَنَا مَـنْ لَـوْ على البُعدِ حَيّاً كان يُحيينَا

وأسـأَلُ هُـنالِكَ : هَلْ عَنّي تَذكُّرُنا إلفـاً ، تَذَكُّـرُهُ أَمْسَـى يُعَنِّيـنَا ؟

فما استعضنا خليلاً منك يحسنـــا ولا استفـدنا حبيباً عنـــك يثنينـا

وله أيضاً :

وقد يأسنـــا فمـا لليأس يغرينـا يقضـى علينا الأسى لولا تأسـينا

وثمـة ظواهر موسيقية أخرى تنشأ من تكرار صيغ موسيقية متفقة في البنية، وقد ترد هذه الصيغ في القافية أو في حشو البيت فمثال ما يرد في القافية ويمثل إيقاعاً نغمياً أو توافقاً نغمياً ينشأ عن التكرار الرأسي .

- تجافينا
- تلاقينا
- تصافينا
- تقاضينا
- تكافينا

وثمة مجموعة أخرى من كلمات التوافق تتمثل فيما يلي :

– يبلينا – يبكينا – يغوينا – يعنينا – تزيينا –

– تحسينا – تبيينا – يغشينا – يظمينا – تلهينا –

يثنينا – تولينا .

وقد يحدث الإيقاع من تكرار مجموعة ثالثة من ألفاظ القوافي مثل:

- بأيدينـــا	- أمانينا
- أعادينا	- رياحينا
- تكافينا	- أحايينا
- لياليا	- أمانينا
-	- أحايينا

وقـد تنشـأ الظاهرة الإيقاعية من تكرار ألفاظ عبر البيت بأماكن معينة ، وصيغ معينة متفقة مثل :

- أنحل	- انبت
- ما كان معقوداً	- ما كان موصولاً
- وما يخشى تفرقنا	- وما يُرجى تلاقينا
- لم تعتقد	- لم نتقلد
- أن تقروا	- أن تسروا
- ما ابتلت	- لا جفت

وهـذا اللون من التكرار في الصيغ يحرص ابن زيدون عليها في مواضعها وكأنها محـاور ارتكازيـة يتكئ عليها بانتظام في مواضعها وتتعاقب عليها سائر الألفاظ وكأنها مشدودة إليها أو منبثقة منها كما في الزخارف الإسلامية(٤٦).

ومـن معالم لغة الشعر عند ابن زيدون قدرته الفائقة على استخدام الحروف وأدوات اللغة الثانوية استخداماً فنياً ومن أمثلة ذلك قوله : (٤٧)

أَضْـحَى التَّنائـي بَـديلاً مِنْ تَدانينَا	**وَنَـابَ عَـنْ طِـيبِ لُقْـيَانَا تَجافِينَا**
فَانحَـلّ مـا كـانَ مَعْقُـوداً بِأَنْفُسِنا	**وَانْـبَتَّ مـا كـانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا**
مـا حَقَّـنا أن تُقِرّوا عَينَ ذي حَسَدٍ	**بِـنا،وَلا أَنْ تَسُـرّوا كاشِـحاً فِيـنَا**
وَاللهِ مَـا طَلَـبَتْ أَهْـوَاؤُنَا بَـدَلاً	**مِـنكُمْ ، وَلا انصـرَفَتْ عَنكمْ أَمانينا**

وكـذا اسـتخدام لحـرف الفاء الذي يفيد الترتيب مع التعقيب كقوله[٤٨]: فدعوا بأن نغـص فقال الدهر آمينا كذلك تبدو مقدرة ابن زيدون اللغوية في استخدامه للأفعال وهي ترد على التوالي : المضارع، الماضي، الأمر، بنسب مختلفة .

أولاً : المضـارع:- يسـتخدم ابـن زيـدون المضـارع للأفعال التي يريد لها الاسـتمرارية فهـو يعبـر بـه عن التجربة الآنية ويستشرف بها مستقبل تجربته، والمضارع هو الغالب على الزمن في القصيدة وقد استخدمه مثبتاً ومنه :

يضحكنا – بيكينا – تكاد – تناجيكم – تقضي – تسلينا- يأسـنا – يغبرنا – يسقينا – تذكره – يعيننا – يحيينا – يقضينا – توّجه – تأود – تملينا – يصبينا – يكتمنا – يكاد – يغشينا – يروينا – يظمينا – تجنباه – نأسى – يحبسنا – يثنينا – يُصبينا – يقنعنا – يكفينا – تولينا-

وقد يسبق المضارع أحياناً بأن المصدرية كقوله :

بأن نغص

أن تسروا

أن تقروا

وكذا قد يقترن بلام التعليل كقوله :

ليسق عهدكم عهد السرور

كما قد يتقدم المضارع المثبت (قد) التي تفيد تحقيق الفعل لا محالة كقوله :

وقد نكون

قد يأسنا

وقد يرد المضارع مسبوقاً بأداة نفى أو نهى أو جزم ، فمن أمثلة المضارع المسبوق بنفي قوله :

ما تجلى ، ما يخشى ، ما يُرجى .

ومن أمثلة المضارع المسبوق بنهي والأداه لا الناهية قوله :

لا يبلى

لا تحسبوا

وقد يتقدم المضارع أداة جزم مثل لم كقوله :

لم نعتقد ، لم نتقلد ، لم نبت ، لم نهجره ، لم يكن ، لم تبلي ، لم نعدل .

والملاحظـــة أن جميع الأفعال المجزومة تدور في سياق واحد هو التفرد في الحب والتبتل في العاطفة إعلاء لشأن المحبوبة التي كانت ومازالت وستظل محبوبته .

وثمـــة ملاحظة جديرة بالاهتمام هي أن المضارع قد يرد جملة تعرب خبراً لماضي ناقص ومن أمثلة ذلك :

- *أمسى يغنيِّا .*
- *كنا نرى البأس تسلينا عوارضه .*

كما يرد المضارع أحيانا جوابا لشرط فعله ماضي مثال قوله :

إنْ كـــانَ قَـــدْ عَزّ في الدّنْيَا اللقاءُ بكم ففـــي مـــوْقـــــفِ الحَـــشرِ نَلقاكُمْ

<u>ثانـــياً : الماضي :</u> وتستخدم أفعال المعنى للتعبير عن الماضي الذي قد يعبر به عن الحاضر أو الماضي القريب ومن أمثلة الماضي المثبت قوله :

أضحى – ناب – غدت – كانت – قدّر – آدته – أدمته – حان – جنينا – غير – عنى – أمس – أنشاه – أجنت – جلاه – سحبنا – خطرنا – حسبنا – تركنا – قرأنا – أخذنا – عدتنا – دان – شفعت –

وقد يتقدم الماضي قد التي تفيد التحقيق أيضاً كقوله :

قد كان ، قد عاد ، قد عزّ ، قد يئسنا ، قد حثت ، قد غُص .

كذلك من الماضي المسبوق بنفي قوله :

ما ابتلت ، ما كنتم ، ما طلبت ، ما شوركت .

ما استعضنا ، ما دمنا – ما بقيت .

ومثال المسبوق بنهي قوله :

لا انصرفت

لا جفت

وقد يرد الماضي بالبناء للمجهول مثل قوله

أبدلنا ، شوركت – دِينا

ومن الماضي ما ورد تاما ومنه ما ورد ناقصا ، فمن أمثلة الماضي التام :-

خاب – حان – صبحنا – قام – عاد – دعوا

ومثال الماضي الناقص قوله :

أضحى – كنا – ما زلت – ما بمنا – أحسن – كانت

كذلك نلاحظ أن الماضي إما ثلاثياً مجرداً ، أو مزيداً بزيادة فمن المجرد مثل:

ناب – حان – نال – عاد – ضر – عز

ومن أمثلة الأفعال المزيدة قوله :

انفردت – أبدلنا – استعصننا – استفدنا – قدّر – ابتلت

ومنها ما اسند لضمير ، ومنها المجرد من الضمائر فمن أمثلة المجردة :

ناب – قدر – أنشأ – حان – نال – قام – ضر

ومن أمثلة المتصلة بضمائر قوله :

صبحنا – فدعوا – يئسنا – بنتم – فغدت

أما الأمر : فيرد على قلة في القصيدة وهو يرد على النحو التالي :

غاد – أسال – اسق – بلغ – دومي – أبدى

وقد يستخدم اسم فعل الأمر وقد ورد مرة واحدة في قوله :

آمينـــا .

بمعنى استجب .

الضـــمائر: ويسجل النص قدرة فائقة للمبدع في التعامل مع الضمائر وتحولها من الغائب إلى المتكلم بطريقة تلفت النظر بقوله :

حَالَــتْ لِفَقْــدِكُمُ أَيّامُــنا ، فَغَــدَت سُــوداً ، وكانَتْ بكُمْ بِيضاً لَيالِينَا لياليناَ(٤٩)

فالتحول من المخاطب إلى المتكلم ثم إلى الغائب فالمتكلم

وكلها بصيغ الجمع للمخاطبين أو للغياب أو لجماعة المتكلمين تعظيما وتقديراً.

ولا يفوتنـــي الإشـــارة ونحـــن بصدد لغة الشعر في الخطاب أن أشير إلى الأساليب اللغوية ومنها :

١- **التوكيد:** ومن أدواته إن المكسورة الهمزة المشددة النون

في قوله : إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً .

إنَّ الزّمانَ الذي مازَالَ يُضْحِكُنا أُنْســاً بقُــربِــهِمُ قَــدْ عــادَ يُبْكِينَا

وقــد اســنخدم مؤكداً ثانياً لتحقيق الفعل لا محالة هو قد للفعل عاد أى الزمان الذي حرص على توكيده في أول الكلام .

٢- **القصر** : ومن طرقه ما - إلا وقد ورد في موضعين هما :

الأول : لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم

أي وفائي لكم عقيدة . ولم نتقلد غيره دينـــا

والثاني : بل ما تجلى لها إلا أحايينا

الــنــداء : ورد في عدة مواضعها وكلها مسبوقة بأداة النداء (يا) ، وهي تجسد صورة المحبوبة كما رآها ابن زيدون كقوله :

يا روضة

يا حياة

يا نعيما

أو استخدام أدوات الطبيعة علها تساعده في تجسيد حبه كقوله :

يا ساري البرق.

يا نسيم الصبا.

يا جنة الخلد.

الاستفهام : وقد يخرج عند معناه الأصلي أو الحقيقي لإفادة التمني كقوله : هل أرى الدهر يقضينا مساعفة والمعنى الحقيقي : أتمنى لو كان كذلك .

النهى : ولم يخرج عن معناه كقوله :

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا

لا الأوتار تلهينا

ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا

الأمـــر : في قوله :

دومي على العهد

ابدى وفـــاء

التمنـــي : ورد مرة واحدة في قوله : يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكم . هذه هي جملـــة الأســـاليب الإنشـــائية التي وردت في النص وكلها تعكس قدرة ابن زيدون على التعامل مع لغة الشعر بقدرة ومهارة فائقة .

والقصيدة بعد ذلك تعد مثالاً للوحدة العضوية[٥٠] وأعنى بها وحدة الموضوع ووحدة المشـــاعر، ومـــا يترتب على ذلك من ترتيب الصور والأفكار بحيث تكون أجزاء القصـــيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفة خاصة فيها ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في الصور والمشاعر .

الهوامش

١) ديـــوان ابـــن زيدون ورسائله – مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧م، ص ٣٠ – وما بعدها = بتصرف.

٢) المصدر السابق : ٣٣ .

٣) المصدر السابق : ٣٣ .

٤) المصدر السابق : ٣٧ .

٥) ديوان ابن زيدون ورسائله : ٣٧ كنابة عند أنها مبتذلة مباحة.

٦) يشـــير إلى قول أبي نواس : { أظنك من بقية قوم موسى – فهم لا يصبرون علـــى الطعـــام } ، يـــرميها بالابـــتذال وعـــدم الاكـــتفاء بحبـــيب واحـــد . ديوان أبي نواس : ٥٤٢

٧) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق : ١١

٨) المرجع السابق : ١١

٩) غابر الأندلس وحاضرها : ص ١٥٩ ، محمد كرد علي ، مطبعة الرحمانية بمصر .

١٠) ديوان ابن زيدون ورسائله : ١٣٣ .

١١) الأغانـــي للأصفهاني : ٢١٦/٦ مصوره طبعة دار الكتب المصرية . مؤسسة جمال للطباعة بيروت – لبنان .

١٢) شـــرح ديـــوان عمـــر بن أبي ربيعة : ٣١ ، وانظر أيضا المصدر السابق : ٤٩٢ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد.

١٣) ديـــوان كثير عزه : ٩٦ – ٩٧ ، تحقيق : عدنان زكي درويش ، دار صادر – بيروت ١٩٩٤م.

١٤) ديوان العباس بن الأحنف : ٢٨ دار صادر بيروت.

١٥) ديـــوان إبراهيم ناجي : ٣٣- ٤٧ الأعمال الكاملة، ليالى القاهرة، ط الشروق الأولى ١٩٨٣

١٦) التنائي : أي البعد وعكسه التداني (التجافي : المقاطعة) .

١٧) ألا :لغة في هلا وهي كلمة تخصيص مركبة من هل ولا (الحين : الموت)

١٨) غص بالماء شرق به .

١٩) نعتب : نرضي ، من العتبى وهي الرضا .

٢٠) الكاشح : العدو .

٢١) بنتم : بعدتم الجوانح : جمع جانحه وهي الضلع ، والمراد بالجوانح ما بداخلها من القلب والحشا .

٢٢) المآقى : العيون ، التآسى : الصبر والتعزى .

٢٣) حالت : استحالت أي تحولت من حال إلى حال .

٢٤) مصرف : أملنا وهنا شبه الوصل بشجرة فالاستعارة مكنية، القطوف : الثمار التي تجنى وتقطف شيئاً – مخففه من شئت

٢٥) غاد : باكر .

٢٦) عنى : شغل .

٢٧) غبا : الغب في الزيارة الاقلال .

٢٨) الورق : الفضة .

٢٩) تـــأود : تثنـــى آدته : أثقلته : توم للالئ ، مفردها تومة وهي حبة من فضة، وجمعهـــا تـــوم بفتح الواو وإسكانها البرى : الخلاخيل ، ومفردها البرة وهي حلقة الخلخال .

٣٠) الظئر : المرضعة ، أكلة : جمع كله وهي ستر رقيق يوضع فوق الفرش .

٣١) التعويذ : الرقية .

٣٢) النسرين : نوع من الوردِ أبيض عطري الرئحة .

٣٣) تمليا : تمتعنا وتنعمنا .

٣٤) الغضارة : النعمة وخفض العيش ، الوشى : ثوب من الحرير منقوش .

٣٥) السدرة : شجرة النبق وهي كبيرة عظيمة الظل ، الإشارة هنا إلى سدرة المنتهى ، الكوثر : نهر في الجنة ، الزقوم والغسلين : أطعمة أهل جهنم.

٣٦) النهي : جمع نهية وهي العقل .

٣٧) قالينا : كارهين

٣٨) كثب : قرب ، عدتنا : صرفتنا العوادي : صروف الدهر .

٣٩) الشمول الخمر ، مشعشعة : ممزوجة بالماء .

٤٠) الذخيرة ١/٣١١ .

٤١) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ٣٦٢ .

٤٢) العقل الباطن ص ٧٨ .

٤٣) الحب العذري ص ٧٨ .

٤٤) الذخيرة من ١ جـ ١ ص٣٢٦ .

٤٥) انظر الصناعتين . لأبي هلال العسكري . ومعناه : مثل الطراز للثوب

٤٦) العلاقات التصويرية ببن الشعر العربي والفن الإسلامي : د / نبيل نوفل ١٣٧ ، ٦٣٨ .

٤٧) ديوان ابن زيدون : النص .

٤٨) البنيات الأسلوبية : د. مصطفى السعدني : ٣١ منشأة المعارف بالإسكندرية .

٤٩) النقد الأدبى الحديث : د. محمد غنيمي : ٣٩٥ .

٥٠) الوحدة العضوية في القصيدة الغنائية: د. مصطفى عمر ، دار المعارف بمصر .

المصادر والمراجع

- الأدب الأنـــدلس: موضـــوعاته وفـــنونه، د/ مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٧م .
- الأدب الأندلس: د/ أحمد هيكل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٩م.
- الأدب العربي في الأندلس: د/ عبد العزيز عتيق ، ط دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م .
- الأســس النفســية للإبــداع الفني في الشعر خاصة، د/ مصطفى سويف، ط دار المعارف بمصر .
- البنــيات الأســلوبية د/ مصــطفى الســعدني منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٠م .
- تاريخ الأدب الأندلس (عصر سيادة قرطبة) د / إحسان عباس ط٦، دار الثقافة ١٩٨١م . القاهرة .
- ديــوان ابــن زيــدون ورسائله : تحقيق وشرح : على عبد العظيم مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٥م.
- ديــوان أبــي نــواس : شــرح أحمد عبد المجيد الغزالي ، ط دار الكتاب العربي، لبنان.
- شــرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة.
- ديوان العباس بن الأحنف : دار صادر بيروت.
- ديوان كثير عزة: دار صادر بيروت ١٩٩٤م.
- ديــوان إبراهيم ناجى: الأعمال الكاملة، ليالى القاهرة، ط الشروق الأولى ١٩٨٣م.

- الذخيـــرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام : تحقيق : د/ حامد عباس ، ط دار الدار العربية للكتاب، ليبيا ، تونس .
- العلاقـــات التصـــويرية بين الشعر العربي والفن الإسلامي : د/نبيل نوفل، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٣م .
- غابـــر الأنـــدلس وحاضـــرها: محمد كرد علي، المطبعة الرحمانية مصر ١٣٤٢هـــ.
- لسان العرب لابن منظور ، نشر دار المعارف بمصر .
- النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، مطبعة نهضة مصر بالفجالة ١٩٩٦م.
- الـــوحدة العضوية في القصيدة الغنائية : د/ مصطفى عمر ، دار المعارف بمصر.
- ابن زيدون ، عصره وحياته ، وأدبه .